دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	إدارة المعرفة
المصدر:	فصول - مصر
المؤلف الرئيسي:	فوكو، ميشيل
مؤلفين آخرين:	دياب، محمد حافظ(عارض)
المجلد/العدد:	مج 4, ع 3
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1984
الشهر:	يونيه
الصفحات:	223 - 228
رقم MD:	525749
نوع المحتوى:	عروض كتب
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	عروض كتب
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/525749

© 2016 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

إرادة المعرفة *

ميشيل فوكو

عرض: محمد حافظ دياب

شاقة وشائقة ، مهمة الكتابة عن ميشيل فوكو أو قراءته . شاقة ، لأنها - بمعنى ما - تسير ضد الفهم السائد والإبستمولوجيا الشائعة ؛ وشائقة ، لأن الشواهد التى يحتج بها كثيرة وحاضرة .

إبتداء ، من يكون الرجل ؟

أهو فيلسوف ؟ ربما ؛ فهكذا قالت أستاذة الفلسفة آنجيل ماريتى A. Marietti « إن فوكو قد جدد الفلسفة المعاصرة » . أهو مؤرخ ؟ يجوز ؛ فقد صنف يوماً بهذه الصفة ، بوصفه امتداداً لمحاولات لوسيان فيفر L . Febvre فى التحليل الاجتماعى للتاريخ ، التى تعرف بمدرسة « الحوليات » Annals . أم أنه ليس فيلسوفاً ولا مؤرخاً ؟ هذا صحيح كذلك ؛ فبقوله : « إذا كانت الفلسفة تعنى البحث عن العلل الأولى ، فإن ما قمت به لايمكن أن يعد فلسفة . وإذا كان التاريخ يقوم على إعادة بناء فترات مطموسة ، فإن ما أحاوله ليس تاريخاً » . أهو أركيولوجى إذن ؟ ربما ؛ لكن هذه الكلمة لا تعنى - كما يبدو للوهلة الأولى - ارتباطاً بالآثار ومعرفتها ، وإن شاركتها فى أن كليهما عمل من أعمال التنقيب ، والحفر فى الدماغ ؛ دماغ الإنسان وممارساته ومعارفه . إنها تشير - ارتباطاً بفوكو وبكتاباته ، وبخاصة مؤلفه الشهير : « أركيولوجيا المعرفة »L' Archeologie du savoir الذى أصدره عام ١٩٦٩ - إلى محاولات إعادة النظر فى وضع المعرفة ، واستيضاح هشاشة تحديداتها القطعية ، ومنهجياتها الجاهزة . إنها تشير إلى نمط معرفى جديد Nouvelle figure épistemologique لتحليل الخطاب Le discours سواء كان صيغة أدبية أو قضية علمية أو عبارة يومية أو هذيانا ذهانيا ، من خلال السياق المعرفى والاجتماعى والحضارى الذى يظهر فيه ، ليس بقصد اكتشاف رمزية اللغة ومجازية المعنى فيه وحسب ، ولكن بهدف تمييزه عن مثيله الذى لا يتزامن معه ، ثم إيجاد علاقته الخاصة مع الممارسات غير الخطابية Les pratiques non-discursives التى تتعالق معه وتتحاور عبره ، بغية معرفة مجموعة الشروط التى أتاحت له هذا التواجد ، ومن ثم منعت خطاباً آخر مكانه .

ترى هل تعيد محاولاته هذه كشفاً عن صور جديدة للعقل ، تحل محل مفهوم العقل الكلاسيكى الذى أسسه ديكارت R . Descartes عن طريق البحث عن نسق خفى وراء المفاهيم والتصورات ، وتبياناً لنسبية العقل واختلاف حدوده باختلاف المجتمعات والعصور ؟ إنه سؤال دائم ، تبحث الكتابة عند فوكو داخله عن نفسها ، وتبحث الكتابة عنده عن الجواب .

ولد فوكو عام ١٩٢٦ فى مدينة بواتييه Poitiers ، وحصل على الأستاذية فى الفلسفة Agregation ، ثم عمل بالتدريس فى كلية الآداب والعلوم الاجتماعية بمدينة كلير مونت - فيران Cler-mont — Ferrand ، وانتدب للعمل بالجامعة التونسية عام

* **Foucault , M .** La Volanté de Savoir , Gallimard , Paris , 1977

١٩٦٦ ، فجامعة فانسان Vincennes بباريس ، قبل أن يحصل على كرسى الأستاذية بالمعهد الفرنسى العتيد « الكوليج دوفرانس »Le college de France عام ١٩٧٠ ، فيجلس على كرسى بيرجسون Bergson ويخلف أستاذه جان إبيوليت J. Hippolyte ، متخصصاً فى « تاريخ أنساق الفكر » Histoire des systemes de pensée . يومها قال مثقفو باريس إن فوكو بعمله فى هذا المعهد قد أقام حواراً صعباً ؛ بمعنى أن قبوله التعيين فيه يدل على أن الفكر الفرنسى الأكثر جسارة ونزقاً وطليعية قد دخل طواعية قفص المؤسسة ، حتى لو كانت هذه المؤسسة فى حرية الكوليج دوفرانس ورحابتها .

ذلك أن فوكو - عبر ممارساته الفكرية ، ومشاركاته السياسية ، منذ الانتفاضة الطلابية فى مايو ١٩٦٨ - كان دائماً ضد المؤسسة . كذلك العمل الذى قام به فى إطار « مجموعة الإعلام حول السجون » ، إثر هبة السجناء فى عدد من السجون الفرنسية عامى ١٩٧٠ ، ١٩٧١ ، التى حلت نفسها بعد ذلك ، لتتحول إلى لجان من أجل الدفاع عنهم ، رأس فوكو إحداها .

ولكن ، لماذا العمل مع الطلاب والمساجين ؟ خصوصاً أن فوكو عاش فى أبحاثه الأولى مع المرضى والذهانيين ؟

يرى فوكو أن الحركات الاجتماعية قد دخلت - بدءا من السبعينيات - مرحلة جديدة تتسم بطابعين أساسيين : أولهما ، اللامركزية ، بمعنى عدم الخضوع لتوجيه حزبى أو أيديولوجى ؛ وثانيهما ، أنها لم تعد تقتصر على القطاعات التقليدية كالعمال أو الفلاحين ، بل انتقلت إلى مؤسسات وفئات جديدة ، كالطلاب والمساجين والمرضى والمؤسسات التكنولوجية والعلمية والطبية . ومن ثم لم تعد الشعارات المرفوعة تقتصر على تحسين أوضاع معيشية ، بل تعدتها إلى طبيعة العمل نفسه ، وإلى الطبيعة الاستبدادية للمؤسسة . فالطبيب النفسى - على سبيل المثال - لم يعد يلتزم سياسياً بالتعاطف مع الطبقات الكادحة ، بل يأتى رفضه موجهاً فى الأساس ضد الدور الذى يلعبه فى المؤسسة . ذلك أن المثقف أصبح يتكىء على ما يسميه فوكو « المعرفة - السلطة » Le savoir de pouvoir التى تتميز بنمط من ممارسة السلطة عبر المعرفة ، أو ما يطلق عليه « الاقتصاد السياسى للتنوع L'economie politique de la variété» .

أركيولوجيا صعبة :

وفى استطلاع قامت به مجلة « اقرأ » Lire عام ١٩٨٢ ، حول أهم أعلام الفكر الفرنسى بعد وفاة سارتر وبارت ، جاء اسم فوكو الثالث بعد « ستروس » ، و « آرون » ، وقبل « لاكان » ، و « سيمون دوبوفوار » . وبرغم هذه (الشعبية) الواضحة ، فثمة مشكلات فكرية ونظرية وأسلوبية عدة تعترض قارىء فوكو .

فمن ناحية ، يبدو لمن يتتبع مؤلفاته أنها تتأبى على التصنيف فى تيار فكرى محدد . ثمة شىء ما . . ناحية ما ، تختلف دائماً عن كل منهج يحاول الدارس أن يخصه به . إنه لا يسجن نفسه ولا يشاء - فى بناء نظرى بعينه . بل إنه يسهم -بشكل أوبآخر- فى إبقاء الالتباس حول خطه الفكرى ، وأحياناً زيادته . فهو تارة يصنف فى زمرة البنيويين ، مع « جاكوبسون » R.Jakob-son فى علم اللغة ، وستروس C. Levi— Strauss فى الأنثروبولوجيا ، لكنه من الناحية الشكلية - على الأقل - ليس كذلك . فأساليب التحليل البنيوى التى غزت مناطق معرفية كثيرة بدرجة أضحت معها موجة رائجة ، لم تنج من أسرها إلا الندرة ، من بينهم فوكو على الأخص ، حيث تتضح معالم منهجيته الخاصة فى استقراءاته ؛ وهى منهجية صرح فوكو يوماً أنه استعارها من الأنثروبولوجى الفرنسى المعاصر جورج ديموزيل G. Dimouzel .

وتارة أخرى ، يربط بعض الباحثين أعماله بأفكار العبث واللامعقول التى ازدهرت فى الخمسينيات ، مستشهدين بتضمينات له استعارها من صمويل بيكيت S. Beckett . لكن فوكو - كما أورد - كان يفعل ذلك للتدليل على محدودية كل كتابة ، وأية كتابة .

وقيل إنه يكمل البحوث النقدية لمبادىء العلوم Epistémolo-gie فى مجال الدراسات الإنسانية ، حيث أكد بنفسه مرة على القربى بينه وبين جاستون باشلار G. Bachelard . وفى مناسبة أخرى ، نراه يدعو إلى تطبيق علم الأنساب Généalogie كما أورده نيتشه Nietzsche ، على مجالات بحثه . وفى مصر ، صنفه زكريا إبراهيم سوسيولوجيا Sociologue ، بخاصة فى دراساته عن الطب والطب العقلى .

ومن الناحية النظرية ، واتساقا مع خطه (لاخطه) ، نجده لايكترث للمفاهيم من حيث كونها وحدة أساسية فى تشييدات نظرية تالية ، بل ينظر إليها بوصفها وسيلة ، مجرد وسيلة ، تكون صالحة بقدر فعالياتها فى الاستبصار بظواهرها . قد يلجأ أحياناً إلى محاولات ضبطها ، لكن الطابع النقدى لا يلبث أن يتغلب عليه وعليها ؛ إذ نجده يقول : « ماذا يضمن ألا يكون المفهوم المستخدم هو نفسه نتاجاً تاريخياً ومعرفياً خاصاً ، قد يشكل استخدامه الغفل جوازاً لإدخال الواقع غصباً فى إطار نظرى مسبق ؟ » . وهذا ما يتضح تماماً فى كتابه « تاريخ الجنون فى العصر الكلاسيكى »Histoire de la folie à l'âge classique حيث أبرز نسبية مفهومى « العقل » و « الجنون » ، وتغير مضامينهما عبر قرون ثلاثة ، بدءا من القرن السادس عشر ، حتى نهاية القرن التاسع عشر ، وأوضح بالتحليل تاريخية المفهومين واختلافهما بحسب الآماد الزمنية .

ومن الناحية الأسلوبية ، تمتاز كتابة فوكو بالجزالة والجمال ،

خصوصاً مع استخدامه الغالب للمجاز ؛ وهو ما يشكل إحدى الصعوبات الرئيسية فى ترجمة أعماله . بل لقد فكر الناقد الأدبى جان كوهين J. Kohen ذات مرة فى أن يتصدى لدراسة عدد من هذه الأعمال وتحليلها من الناحية الفنية والأسلوبية ، أى من الناحية الشعرية .

نتفق على هذه الصعوبات . . بعضها أو كلها ، لكنا لا نختلف حول النظر إلى فوكو بوصفه خصماً عنيداً للشكلية اللاتاريخية ، واللااجتماعية ، وإن وقع - على ما يرى إدوارد سعيد - ضحية الانحلال المنهجى للنظرية ، بطرق وأساليب يعدها أحدث تلامذته - مع قلة من الاستثناءات - دليلاً على كونه لم يخضع ، أو يذعن ، للتقوقع والعزلة .

السلطة والمعرفة :

ولقد يبدو هنا أنه كان لا بد من هذه المقدمة لتكون مدخلاً لعرض كتابه « إرادة المعرفة » La volonté de savoir.إنه كتاب صغير الحجم وكبير القيمة ، يعرضه صاحبه بوصفه وثيقة عامة عن مسألة السلطة Le pouvoir ، ويغالبنا إزاءه محاولة عرض أفكاره أو تلخيصها .

ويرى فوكو أن ظهور هذه المسألة على نحو حاد فى الفكر الاجتماعى والفلسفى المعاصر يعود إلى « المفارقة العجيبة » التى حدثت فى فرنسا فى مايو ١٩٦٨ ، حيث فتحت تجربة الحركات الطلابية الباب واسعاً أمام التساؤل عن معنى السلطة وماهيتها ؛ فقد تبين أن السلطة هى فى منتهى الصلابة والهشاشة معا . لقد كان يكفى أن يقوم هذا « الكرنفال الطلابى » بتحركاته ، وينصب متاريسه فى مواجهات عنيفة ، لتتهشم معظم الأجهزة ، فتسقط السلطة فى مدة وجيزة . لكنه كان يكفى أيضاً بضع لحظات لينتصب « ديناصور » السلطة مرة أخرى كما لو أن شيئا لم يقع .

ويذكر فوكو أنه كان من اللازم انتظار القرن التاسع عشر لنعرف ما الاستغلال ، ولكننا ربما لا نعرف إلى الآن ما السلطة . « إننا نعرف من يستغل ، من يستفيد ، من ينتفع ، من يحكم ، لكن السلطة شىء غاية فى التميع . لقد عرفت الماركسية السلطة بألفاظ المصلحة ، حيث السلطة تمتلكها طبقة سائدة محددة بمصالحها ؛ ولكننا حين نقبل هذا التفسير نصطدم بصعوبة هى : كيف نتصور أن أناسا لامصلحة لهم (مثل بعض المثقفين) يتبعون السلطة ويعانقونها على الدوام ، دون الحصول على ذرة منها ؟ ذلك لأن المصلحة - بألفاظ الاستثمارات الاقتصادية واللاشعورية فى الوقت نفسه - ليست هى الكلمة النهائية . هناك استثمارات للرغبة تفسر أنه يمكن - عند الحاجة - أن تقف الرغبة لا ضد مصلحة المرء فحسب ؛ لأن المصلحة تتبع الرغبة دوما ؛ بل يمكن كذلك أن يرغب المرء أحياناً بصورة أعمق وأبعد غوراً من مصلحته » . ويتساءل فوكو : هل تمثل الدولة السلطة التى تعلو على سلطة أى جماعة أخرى فى المجتمع ، كما تقرر ذلك أدبيات علم السياسة ؟

إن رولان بارت R. Barthes يرى أن السلطة بمعناها الواسع « حاضرة فى كل العمليات الاجتماعية البالغة الدقة فى التبادل الاجتماعى . فهى ليست مقصورة فحسب على الدولة والطبقات والجماعات ، بل تمتد لتشمل الموضات والآراء الجارية والمشاهد والألعاب والأخبار والعلاقات العائلية والخاصة وتشمل حتى ردود الفعل التى تحاول مناهضتها. »

أما فوكو فيمضى إلى مدى أبعد فى التحديد ؛ فالسلطة ـ عنده - تعتمد فى تأدية وظائفها على معطيين مترابطين هما : استمرارية المؤسسات القمعية ، من سجون ومدارس وجيوش وعيادات ومصانع ؛ وانتشار الأيديولوجيا المبررة لهذه المؤسسات ؛ « فالسجون - مثلا- تشكل معامل لإنتاج الجنوح ؛ والجنوح - بدوره - هو المادة الخام للخطب التأديبية » . وهذا هو معنى محاولته الكشف عن العلاقة بين نسق السلطة ممثلا فى مؤسساتها ، ونسق المعرفة مجسداً فى الخطاب السائد ، وذلك عن طريق اكتشاف الواقع التاريخى الاجتماعى ، بما يتضمنه من مظاهر السيطرة dominance الفعلية والأيديولوجية .

ذلك أن الخطاب السائد فى كل مجتمع يفرض ما هو مقبول وما هو مرفوض ويحدده ؛ مايمكن قبوله وما يتعين تناسيه والسكوت عنه ؛ « فكل مجتمع يفرض سلسلة من التقسيمات المقبولة التى يسهر على مراقبة مدى احترامها : الخير والشر ، الحلال والحرام ، المباح والمحظور ، المجرم والبرىء ، اليمين واليسار ، التقدمى والمحافظ ، العادى والمرضى ، الجنون والعقل . إن الخطاب السائد فى أى مجتمع هو خطاب سلطة ؛ خطاب ينظم ، ويصفى ويراقب ، ويسد الطريق على الناس فى مقولات معينة . وهذا الخطاب يحكم قبضته على البشر من المهد إلى اللحد ؛ من رياض الأطفال إلى ملجأ الشيوخ . إنه خطاب تتحد فيه السلطة بالمعرفة » .

تكنولوجيا السلطة

ويزيد فوكو المسألة وضوحاً، فينبه إلى أن السلطة لاتعنى عنده مجرد مجموعة المؤسسات والأجهزة التى تقوم بإخضاع المواطنين فى دولة معينة ، كما أنها لا تعنى مجرد نمط من القهر يأخذ شكل القاعدة عوضاً عن أن يستخدم العنف ؛ وهى كذلك لا تعرف بكونها القدرة على فرض إرادة ما تمارسها فئة على أخرى .

فالإخضاع ، والقمع ، والسيطرة ، وغيرها من المفاهيم التى تتركز حولها نظرية السلطة فى الغرب ، تعود - فى رأى فوكو - إلى الطابع التشريعى - اللغوى Jiridico-discursif لهذه النظرية ، التى تظهر فى شكل نواة ، وتعبر عن نفسها فى لغة القانون ، نتيجة للعلاقة التاريخية التى ربطت تطور السلطة بالنظريات التشريعية منذ القرون الوسطى .

أما فى المجتمعات البدائية ، فقد درس الأنثروبولوجيون الرواد وسائل السلطة فيها ، من مثل العقاب الأخلاقى ، والعقاب الطقوسى ، والعقاب الجمعى ، والنظام العشائرى الانقسامى . هذه الوسائل تقوم - لدى فوكو - على مجموعة من المبادىء ، تمثل الأسس الشائعة للنظرية التقليدية للسلطة يسجلها برؤية نقدية على النحو التالى :

(١) **الامتلاك** : حيث السلطة هى ما تمتلكه طبقة مسيطرة ، فإذا احتكرتها جردت الطبقات منها .

وينتقد فوكو هذا المبدأ ؛ إذ السلطة عنده ليست مجرد امتلاك لا يمكن انتزاعه أو تقاسمه أو الاحتفاظ به . إنها تمارس فعالياتها فى كل حيز من البناء الاجتماعى وكل ملمح من ملامحه . . أى أنها تمارس فى أنساق متعددة ، كالعائلة ، والعلاقات الجنسية ، والمسكن ، وعلاقات الجيرة . . الخ . تلعب دور نقاط ارتكاز لها ، أو انتقال ، أو توزيع وانتشار . فأينما نولّ وجوهنا نجد السلطة ، لكن لا بوصفها شيئاً قابلاً للامتلاك ، بل بما هى أمر عابر تتم ممارسته ، ويتكون من تفاوتات متحركة . لذا فالسلطة إما أن تمارس أو لا تمارس ؛ أى أنها دائماً شكل من الصراع الآنى المعرض لتقلبات مستمرة ؛ فهى علاقة صراع وليست علاقة امتلاك .

(٢) المركزية : حيث السلطة تتركز فى أجهزة الدولة ومؤسساتها ، وحيث السلطات الخاصة تكون - حسب هذا المبدأ - أجزاء من جهاز الدولة . أما دراسة السلطة ، فلا تختلف فى هذه الحالة عن دراسة المؤسسات السياسية .

ويرى فوكو عكس ذلك ؛ فهو يرى أن السلطة لاتنحصر فى المؤسسات ، وأنه لا يكفى القول إن أجهزة الدولة هى رهان الصراع من داخل المؤسسات أو من خارجها . إن نسق السلطة - عنده - أعمق وأوسع من أن يحصر فى هذه الأجهزة ؛ بل إن الدولة نفسها هى نتيجة عامة للصراعات الموضعية التى تشكل أساس المؤسسات والأجهزة .

(٣) **التبعية** : ومدارها فى النظرية الماركسية حول علاقة البناء التحتى بالبناء الفوقى ؛ حيث يعد جهاز السلطة خارجياً بالنسبة للاقتصاد ، ويلعب دور إعادة الإنتاج ، فيخضع له وهو تابع له تحليلياً . وهذا معناه أن نمط الإنتاج يلعب دور العلّة الكبرى ، فيحدد فى النهاية طبيعة البنائين السياسى والأيديولوجى ، نتيجة لحاجته إلى إعادة الإنتاج . أما أن تؤخذ بعين الاعتبار استقلالية المستويات ، أى مبدأ الاستقلالية النسبية الذى طوره « لويس ألتوسير » L. Althusser ، فلا يغير هذا فى النظرة إلى وحدة العلة ووحدة الكل .

غير أن فوكو يؤكد تلازم علاقات السلطة مع المؤسسات والعلاقات الأخرى ؛ فهى ليست خارجية بالنسبة لها ، بل جزء من عملها وأساس له . وفى المقابل ، تتطور علاقات السلطة نتيجة للتفاوت والتقسيم والاختلال الحاصل فى المؤسسات والعلاقات . أما بالنسبة للاقتصاد ، فعكس المقولة الماركسية صحيح ؛ أى أن السلطة عنصر مؤسس فى جهاز الإنتاج ، وليس الضامن لإعادة الإنتاج .

(٤) **أسلوب الممارسة** : فالرأى الشائع أن السلطة تمارس عملها بأحد أسلوبين : إما بالقمع بواسطة الأجهزة ؛ وإما بالتضليل عن طريق الأيديولوجيا . وينجم عن هذا تصور أن قسما من الأجهزة يعمل بأسلوب القوة المباشرة فقط (الشرطة ، والجيش ، والمؤسسات القمعية) ، وأن القسم الآخر (التعليم ، الأحزاب . . الخ) يؤمّن غطاء أيديولوجيا للاستغلال الاقتصادى . لذا تقاس الأيديولوجيا بالعلم دائماً ؛ فإذا كان هدف السلطة هو التضليل ، نتج عن ذلك أن العلم - إذا وجد - يدخل فى تناقض أساسى مع السلطة - وهو كذلك دائماً وفى طبيعته - من جهة الطبقة التى يقع عليها الاستغلال .

ويرى فوكو أن السلطة تعمل - فى كثير من الأحيان - بأساليب أخرى غير القمع والأيديولوجيا . ومن ناحية أخرى ، لا تنتج السلطة أيديولوجيا ، بل معرفة إيجابية توظفها فى عملها ، وتقيم على أساسها استراتيجيات وحسابات للتحرك الموضعى . أما عمليات التضليل فتبقى ثانوية بالنسبة للإنتاج المعرفى الكبير ، الذى لولاه لفقدت علاقات السلطة أرضية العمل .

(٥) **الشرعية** : حيث يرتبط مبدأ سلطة الدولة بشرعية تتلبسها ، فتكرس سيطرة فريق على آخر . وتبدو الشرعية كأنها نتيجة صراع انتهى لصالح طرف ، ومهد لسلم اجتماعى ثابت فى ظل القانون .

أما فوكو ، فكما أنه يرفض الاقتصار على الخطاب القانونى والجهازين السياسى والقمعى فى بحثه عن السلطة ، ولا يرى أيضا أن التناقض بين عمل قانونى وآخر غير قانونى هو نقطة ارتكاز السلطة . فالقانون ليس إلا نتيجة لترتيب مختلف اللاشرعيات كلها ، الفوقية والتحتية ؛ لأنه من الممكن أن يجتمع نمطا اللاشرعية فى تحرك واحد . أما جهاز الدولة فلا يقوم إلا بإعادة توزيع اللاشرعيات ، وبوضعها فى شكل القانون وبإرادتها .

وينجم عن هذا الموقف عدد من النتائج :

١ - التخلى عن فكرة القانون بما هو صورة نموذجية للسلطة ؛ لأن القانون يحرم أو يبيح ، كأن يتم وصف السلطة على أساس علاقاتها بالحرية أو الحريات . فالسلطة تمنع أو تمنح ، ويقاس الفرق بين مجتمع وآخر ، وبين سلطة وأخرى ، بحجم الحريات الممنوحة . أما فوكو ، فبتأكيده عمل السلطة عبر اللا شرعيات ، يبعد التناقض (محرم/مباح) .

ب - إبطال فكرة التناقض ؛ لأن السلطة ليست فى يد طبقة واحدة دون الأخرى ؛ ولأن ممارسة السلطة ليست بفرض قانون من قبل طبقة على أخرى ، فتبيح كل الأفعال من جهة ، وتحرم كل الأفعال من جهة أخرى .

وعبر هذه المحددات والانتقادات ، يخلص فوكو إلى تعريف للسلطة بأنها : « علاقات القوى المتعددة ، التى تحتل البناء الاجتماعى بكامله ، والتى تؤلف محاور صراع ومقاومة لامحدودة ، بشكل كل محور منها مرتكزاً لعلاقة سلطوية ، تتضمن مقاومة موضوعية ذات طابع خاص (عنيفة ، منظمة ، عفوية ، جذرية ، مساومة . . الخ) . ومن جهة أخرى ، لايمكن القول إن ثمة فئة معينة خارج السلطة ؛ لأنه « لا داخل » و « لا خارج » فى مثل هذا الوضع العلاقى ، وكذلك ليس هناك حسم نهائى ، بل حالة حرب عامة ، وصراعات موضعية ، مع انتصارات وتقلبات ليست نهائية » .

ويرى فوكو أن الملوك فى الماضى كانوا ينفردون بالسلطة عن طريق قتل مناوئيهم ؛ ومن هنا كان الجسد دائما هدفا لعلاقات السلطة . أما فى عصرنا ، فإن المجتمع لا يقتل ، بل يحرص على الحياة ، فتكثر مؤسساته من مستشفيات وأديرة وثكنات عسكرية ومصانع ومدارس ، بالإضافة إلى المؤسسات التقليدية ، كالمحاكم والسجون . ومن ثم فإنه يمارس سلطة غير مرئية ، يضطر الإنسان إلى الخضوع لها فى كل تحركاته ، حتى يكاد يفقد ذاته ويموت ، عن طريق إخضاع الجسد لتكنولوجيا تأديبية ، وجعله مصدراً لفائض سلطة ، بواسطة مزيد من المؤسسات التى : « تعنى بجسد الإنسان ، ولا تستهدف زيادة قدراته ، أو زيادة خضوعه ، بل خلق علاقة تجعل من عملية زيادة الطاعة عملية مفيدة » .

هذه المؤسسات تقوم على آلية Machinisme مبرمجة سلفا ، تتبدى فى : توزيع الأفراد فى حيّز معين ، عن طريق إغلاق المكان ، ووضع كل فرد فى مساحة معينة ، وترتيبه على أساس وظيفى ، وتعيين أمكنة تناسب المرتبة statut ، ثم مراقبة (العمل) ، وتقسيم الجسد وإخضاع كل جزء منه لممارسة ما ، والتحكم فى تنظيم الوقت والأعمال بحيث ينتج عنها تراكم أو ازدياد أو تقدم ، وإخضاعه لعلاقات القوى بحيث تؤدى نتيجة أكبر من الطاعة وأقل من الإذعان .

تلك هى مجمل الأفكار التى قدمها فوكو فى كتابه « إرادة المعرفة » ، ما نظن أن هناك حاجة للتنبيه على صعوبة عرضها وتلخيصها ، وإن بقى لنا عليها ملاحظات :

(١) يرى إدوارد سعيد أن نظرية فوكو فى السلطة هى مفهوم اسبينوزى (نسبة إلى الفيلسوف باروخ اسبينوزا) ، وأن هذا المفهوم لم يستحوذ على فوكو نفسه فحسب ، بل استحوذ كذلك على كثير من قرائه ، ممن يرغبون فى مجاوزة تفاؤل اليسار ، وتشاؤم اليمين ، لكى يتسنى لهم تبرير الطمأنينة السياسية بشىء من التعقلية المتخلفة . وفى الوقت نفسه يرغب هؤلاء فى الظهور بمظهر الواقعيين ، الذين لهم صلات بعالم السلطة والواقع ، كما يرغبون فى الظهور بمظهر تاريخى ومعادٍ للشكلية فى تحيزهم ؛ وهو ما يمكن أن يوقع هذه النظرية فى فخ رسم دائرة تسجن نفسها داخلها .

(٢) يسترعى نظرنا كذلك تأثر الرؤية النظرية عند فوكو بتلك الدعوة التى حملها الاتجاه الفينومينولوجى على يد مؤسسها الأول ماينونج A.Meinong ، وتبلورت بعده فى صورة « فلسفة ظواهر » عند هوسرل E. Husserl ، والتى لم يستطع هذا الأخير أن يصل بها إلى نتائجها النهائية .

ذلك أن المنهج الظاهراتى ، الذى جاء به هوسرل ، يتضمن مبدأ تعليق الأحكام ، الذى يعنى تطهير الوعى من تاريخية جميع المفاهيم التى يحملها التراث ، والامتناع عن استخدام أو إطلاق أى تعريف أو حكم على أى موضوع ، وتوجيه الوعى عن طريق الإحالة l' intentionalité إلى الشىء كما هو ؛ حيث إن « كل وعى هو وعى بموضوع » ؛ وهو ما يوحى بإبطال الجدل الكلاسيكى حول أسبقية الواقع على العقل ، أو العكس ، فى نظرية المعرفة المتوارثة منذ اليونان .

(٣) وثمة نقد مهم وجهه اللغوى الأمريكى تشومسكى .N Chomsky إلى نظرية فوكو فى السلطة ، حين حدد الأول (تشومسكى) فى محاورة مع الآخر مهمتين لا يجوز إغفالها :

أولاً ، أن نتخيل مجتمعنا فى المستقبل يمتثل لمقتضيات الطبيعة البشرية فى حاجته إلى العدالة ، والتطور الذاتى ، والعمل الإبداعى ، وأن نفهم هذه المقتضيات على نحو أفضل .

والثانية ، هى أن نحلل طبيعة السلطة والاضطهاد فى مجتمعاتنا المعاصرة .

لقد وافق فوكو على المهمة الثانية ، دون أن يقبل الأولى . فهو يرى أن أى مجتمع فى المستقبل ، يمكننا تخيله الآن ، «لا يعدو كونه من منجزات حضارتنا ، ونظامنا الطبقى ، وأن تخيل مجتمع فى المستقبل ، تحكمه مبادىء العدالة ، هو رهين حدود يفرضها الوعى الزائف . ليس هذا فحسب ، بل إن ذلك المجتمع المتخيل هو مشروع طوباوى» .

إن من وجهة نظره فى « إرادة المعرفة » ، أن أى رد فعلى أو خطابى ضد السلطة ، لا يمكن أن يكون بديلا لها ، بل امتدادا لها واعتمادا عليها ؛ وتلك نظرة ميتافيزيقية تمثل شكلا من أشكال التمادى فى الإجمال النظرى .

(٤) وقد يبدو تقديم فوكو المجتمع كما لو كان مجموعة من السلطات المتناغمة ، تستخدم المعرفة فى الأساس أداة لإحكام السيطرة ، أمرا جديدا . لكن ابن خلدون تناولها قبله فى مقولته عن حاجة السلطة إلى حاجب : « فإذا رسخ عزّه (صاحب

الدولة) ، وصار إلى الانفراد بالمجد ، واحتاج إلى الانفراد بنفسه عن الناس ، للحديث مع أوليائه فى خواص شئونه ، لما يكثر حينئذ بحاشيته ، فيطلب الانفراد عن العامة ما استطاع ، ويتخذ الإذن ببابه على من لا يأمنه من أوليائه وأهل دولته ، ويتخذ حاجبا له عن الناس يقيمه ببابه لهذه الوظيفة » .

نورد هذا النص لكى نؤكد أن فوكو لم يتقدم عليه كثيرا ، بدليل أنه لم يورد جوابا شافيا حول أصل السلطة : أين تتمركز . . من يوجهها . . لصالح من ؟

(٥) وثمة تصور شائع يكمن فى أن ماركس قد افتتح عصر ميكانيزم استغلال الإنسان للإنسان ، وتكوُّن فائض القيمة ؛ لكن الماركسية لا تعلمنا الكثير عن سيطرة الإنسان وتسلطه على الآخر ، وبخاصة فى المجتمعات الحديثة ؛ وهو ما يظهر بوضوح فى تحاشى فوكو للمقولات الماركسية عبر دراسته لمسألة السلطة ، وحصره - بدلا من ذلك - إدراكه للممارسة فى اعتبار مدقق لإشكاليات النصوص دون سواها ، على الرغم من أن الكاتبة الفرنسية دومينيك لوكور Dominique Le Court تؤكد أن إحدى الإيجابيات الأساسية فى تحليلات فوكو تتمثل فى اقترابه من المادية التاريخية .

فمن ناحية ، لا يتحدث فوكو عن سلطة أساسية ، بل عن سلطات مجتمعة ؛ ومن ثم لا يركز - كما ترى الماركسية - على سلطة الدولة باعتبارها جماعا لسلطة طبقية ، بل يرى أن السلطة تتكاثر ، فهى سلطات خاصة متعددة .

ومن ناحية أخرى ، فإنه إذا كان فوكو قد حاول فهم الميكانيزم الداخلى للسلطة ، متسائلا عن السبب الذى يجعل الناس يعيشون بطواعية وتلقائية - وبنوع من العبودية الأبيقورية - السلطة الممارسة عليهم ، فإنه قدم الأمر على نحو من التفسير السيكولوجى القائم على تحليل الرغبة ، كما أنه أغفل مسألة استقطاب السلطة ، وربطها بالصراع الاجتماعى ، وعلاقة السلطة السياسية والأيديولوجيا بالسيادة الطبقية .

قد نتفق مع فوكو فى تحاشيه أن يكون مجرد تابع ساذج من أتباع ماركس ، لكنا نتفق كذلك مع سارتر J. P. Sartre فى القول بأن : « التجرؤ على تجاوز الفكر الماركسى هو - على أسوأ الفروض - عودة إلى ما قبل الماركسية ، وعلى أحسنها ، اكتشاف لتفكير متضمن أصلا فى الفلسفة التى كان يُظن تجاوزها » .

(٦) كذلك فمن الواضح أن منهجية فوكو تعتمد إحلال لغة الأنساق محل اللغة الجدلية ؛ وهو ما أدى بها إلى رفض (الحلقة المفرغة) بين المفاهيم والأشياء ، بين الأيديولوجيا والنظم الاجتماعية والتاريخ . لقد تعاملت مع منطق العلاقات ، من مثل علاقة التجاور والتفاصل ، والتراتب الهرمى ، والتواجد هنا وهناك . . أى علاقة الشبكة .

على أن استخدامه لمفهوم العلاقة أو الشبكة ، ليس هو المفهوم السائد فى تراثه عند « كانت » أو « هيجل » أو « ماركس » ، بل هو نوع من المفهوم المضاد ؛ لأنه ليس المفهوم السابق أو المتضمن أو اللاحق للشىء . فهو لا يتفق مع أية خاصية من خصائص الصورة أو المعنى ، ولا حتى مع مفهوم « الدلالة » الذى يشيع فى علم اللغة الحديث ، المعروف باسم مبحث العلامة La semi-ologie إنه مجرد إشارة لفظية لا تعنى شيئا منفصلا فى ذاته عن النسق أو الشبكة التى تربط مجموعة أشياء متراصفة فى فراغ ما . . نوع من الكتل الهندسية التى تفترض الفراغ أصلا لتواجدها ، أعنى الفراغ الذى ليس هندسة إطلاقا ، والذى لا يحتوى على أية هندسة . ذلك أن فوكو لم يكن مخلصا فى دعوته لحسم العلاقة بين المعرفة والسلطة ؛ فلم يجب عن السؤال الأساسى : هل المعرفة يضفيها العقل على السلطة أو يشتقها منها ؟

وعلى الرغم من الملاحظة ، يبقى « إرادة المعرفة » شهادة مختلفة ، ولغة فيها مراجعة لم نألفها ، وإبستمولوجيا لم نعهدها فى قطعية الخطاب العربى . لعله بهذه الخصلة يقدم شارة على إشكالية الخروج (خروجنا) من المأزق ، وإشارة إلى شهوة التجاوز فى الفكر والمنهج . وقد نتفق معه ونختلف ، لكن لا يختلف على أنه دعوة إلى الخروج من الاتكاء على الجاهز والمألوف ، وبحث عن إرادة لمعرفة لا حدود لاحتمالاتنا معها ومعرفتها بنا .

هوامش

* ميشيل فوكو : الأعمال الأساسية :

(١) المرض العقلى وعلم النفس .
Maladie mentale et psychologie, P.U.F., 1954.

(٢) الجنون واللا عقل : تاريخ الجنون فى العصر الكلاسيكى .
Folie et déraison: Histoire de la folie à l' âge classique I ere ed., Plon, 1961.

(٣) مولد العيادة : أركيولوجيا لرؤية طبية .
Naissance de la clinique: Une archéologie du regard médical P.U.F., 1963.

(٤) ريمون روسل .
Raymond Roussel, Gallimard, 1963.

(٥) الكلمات والأشياء : أركيولوجيا للعلوم الإنسانية .
Les mots et les choses: Une archéologie des sciences humaines, Gallimard, 1966.

(٦) أركيولوجيا المعرفة .
L' archéologie du savoir, Gallimard, 1969.

(٧) نظام الخطاب .
L' order du discours, Gallimard, 1971.

(٨) راقب وعاقب .
Surveiller et punir, Gallimard, 1975.

(٩) إرادة المعرفة .
_ La volonté du savoir, Gallimard, 1976.